النظم بين أبي بكر الباقلاني وعبد القاهر الجرجاني

دراسة في التصورات والإجراءات

En-nadhm between Abu Bakr Al-Baqalani and Abdul Qahir Al-Jurjani

A study in perceptions and procedures

يمينة رعاش *

جامعة محمد لمين دباغين /سطيف

rahmasetif19@yahoo.fr

تاريخ الإرسال: **2024-03-21** تاريخ القبول: **2024-06-02**

ملخص:

تسعى هذه الدراسة إلى إقامة تصورات واضحة ودقيقة لمفهوم النظم في التراث النقدي من خلال ما جاء عند أبي بكر الباقلاني وعبد القاهر الجرجاني ،واعتمادا على المنهج الوصفي سترصد الدراسة الاختلافات في فهم مصطلح النظم بينهما ، وستبين أن اختلاف التصور والرؤية الخاصة بينهما رغم اتكاء كليهما على أسس المذهب (الأشعري) ، سينعكس على الإجراء والممارسة ،وسينتج منهجين مختلفين حتى وإن جمعهما هدف واحد ، مما يعزز فرضية أن عمل كليهما مشروع بحثي قائم بذاته، كما ستبين أوجه التشابه والتداخل بين آراء الرجلين مع معرفة إسهام كل واحد فيهما على حدة .

الكلمات المفتاحية: مصطلح ؛ مفهوم ؛ نظم ؛عبد القاهر الجرجاني ؛أبو بكر الباقلاني .

Abstract:

This study seeks to establish clear and accurate perceptions of the concept of En-nadhm in the critical heritage through what was stated by Abu Bakr Al-Baquilani and Abdul Qaher Al-Jurjani, and based on the descriptive approach, the study will monitor the differences in understanding the term of En-nadhm between them, and will show that the difference in perception and special vision between them despite both relying on the foundations The (Ash'ari) doctrine will be reflected in the procedure and practice, and will produce two different approaches, even if they are united by one goal, which reinforces the hypothesis that the work of both is a stand-alone research project. It will also show the similarities and overlap between the opinions of the two men, while knowing the contribution of each one of them separately.

Keywords: Term ;Concept; En-nadhm ;Abdul Qahir al-Jurjani ; Abu Bakr al-Baquilani.

* **المؤلف المراسل**

مقدمة:

تعد نظرية النظم التي قدمها عبد القاهر الجرجاني خلال القرن الخامس الهجري واحدة من أقوى النظريات التي قدمتها البلاغة العربية عبر تاريخها ،اقتطعت لها مساحة غير صغيرة في خريطة النقد العربي القديم، غير أن مصطلح النظم في حد ذاته تناوله غير واحد من الدارسين قبل عبد القاهر في ظروف نقدية مختلفة ، ونستطيع أن نلحظ أن هذا المصطلح طرح بشكل مبكر في القرن الثالث الهجري مع الجاحظ ، وابتداء من هذه المحطة الزمنية استطاع هذا المصطلح أن يشق لنفسه طريقا تطوريا مبنيا على جهود جميع السابقين ومستفيدا من ثقافات العصر استفادة صحيحة

إشكالية البحث : على الرغم من أن الحديث عن مفهوم النظم عند السابقين قد تناولته دراسات كثيرة في عصرنا الحالي ، لكنه رغم ذلك يبدو هذا المفهوم محتاجا إلى تعميق النظر في كثير من جوانبه ، إذ تكشف العودة المتأنية إليه حقائق جديرة بالاهتمام ، فالنظم خلال القرن الثالث الهجري غير النظم في القرون التالية ، وإن بدا هذا المصطلح/الدال واحدا لدى النقاد ،لكن المدلولات فيه شتى، ونستطيع أن نلحظ أن هذا المصطلح –وبتأثير من التباعد الزمني /المكاني بين من تناولوه - تم تطعيمه وتغذيته بأبعاد ودلالات جديدة .

بداية لابد من التنبيه إلى اشتراك العديد من البيئات الفكرية والثقافية في تشكيل نشأة هذا المصطلح تضم بلاغيين ونحاة ونقادا ومتكلمين ومفسرين على اختلاف مذاهبهم، وطبيعي أن يكون لكل بيئة من هذه البيئات اهتمامها وزاوية نظر خاصة بها في التعامل مع طبيعة الفن الكلامي ،وأن يكون لكل منها وجهة نظر تباين وجهات النظر الأخرى ، وبالتالي أن يكون لكل منها فهمها الخاص لبعض المصطلحات عموما ومصطلح النظم على وجه الخصوص ،وهو ما نتج عنه في أحيان غير قليلة اختلاف مدلول المصطلح الواحد من ناقد لآخر ومن بيئة لأخرى .

ويبدو مثل هذا الموقف من الاستقلال في فهم مصطلح النظم واضحا بين المعتزلة والأشاعرة بسبب تركيز البيئة الأولى على الجانب الحسي الصياغي وما يتضمنه من أصوات

ومسموعات، وتركيز الثانية على المعاني الكامنة في النفس واعتبار الألفاظ مجرد تابع لها، وهو ما أدى في البيئة الأولى إلى تسليط الضوء بدرجة أكبر على النظم الخاص بالألفاظ وأدى في البيئة الأخرى إلى توجيه العناية بالمعاني.

وقاد التباين في جهات التركيز إلى تباين في جهات الدلالة التي نظر إليها أفراد كل من البيئتين في "النظم" بوصفه من المصطلحات المشتركة، فانصرفت دلالة هذا المصطلح في بيئة المعتزلة إلى ما يتصل بنظم الألفاظ وما تشتمل عليه من الأصوات والمسموعات، بينما اتجهت دلالتها في البيئة الأخرى نحو نظم المعاني.

والواقع أن إيراد كل هذه التفاصيل ليس هدفا في حد ذاته ،وإنما أطلنا في الحديث عنها لنؤكد كيف أدى تعدد البيئات الفكرية والعقدية إلى تعدد المفاهيم للمصطلح الواحد ،ويقوم هذا التعدد شاهدا على وجوب الالتفات والتدقيق في تلك المفاهيم ، كما تؤكد أهمية التصدي لبحثها وضرورة التنبه لها من جانب قراء ومتلقي هذا النوع من الدراسات ، وإذا كان حديثنا السابق تبرز فيه الخلافات حول المفهوم واضحة جلية بين مذهبين مختلفين ، فماذا لو تعلق الأمر بدلالات النظم عند رجال المذهب الواحد ؟ بتعميق النظر سيبدو أن الخلاف يمد جذوره إلى نقاط بعيدة ،ليس هذا فحسب ولكن قد نجد الاختلاف قائما لدى الناقد نفسه في أزمان مختلفة ، وقد نبه الدكتور عبد الحكيم راضي إلى ضرورة متابعة :" المصطلحات البلاغية ومصادرها العديدة والعوامل الفاعلة في مدلولاتها" وأضاف قائلا:" هل تظن أن المصطلح الواحد يظل هو هو بلفظه ومعناه في كل زمان ومكان ؟هل تظن أن (المعاظلة) عند قدامة هي (المعاظلة)عند الآمدي أو ابن الأثير ؟وأن النظم عند حازم هو النظم عند عبد القاهر ؟ هل تعرف أن دلالة المصطلح الواحد قد تتعدد لدى المؤلف الواحد في السياقات المختلفة ؟ إن كنت تشك في قولي فاذهب وأعد قراءة الجاحظ أو عبد القاهر ".[1]

تتتبع هذه الدراسة بالبحث والمقارنة مصطلح النظم عند ناقدين ينتميان إلى المذهب نفسه (الأشعري) هما الإمام أبو بكر الباقلاني ،والإمام عبد القاهر الجرجاني ،فهما وإن

[1] - عبد الحكيم راضي: من آفاق الفكر البلاغي عند العرب ،مكتبة الآداب ،القاهرة،ط1، 2006، ص12.

أجمعا على رد الإعجاز إلى النظم ، لكنهما من جهة ثانية يختلفان في تحديد مفهوم النظم ، وتبعا لذلك ألقى هذا الاختلاف ظلاله على منهجيهما في تناوله ،ومن ثم يقوم البحث على فرضية أساسية هي أنه يمكن التوصل إلى فهم أفضل لطبيعة التفكير في مفهوم النظم من خلال تحليل الخلفيات والمرامي والأهداف عند هذين الناقدين .

هدف البحث : يسعى هذا البحث إلى تحقيق جملة من الأهداف أهمها :

- ✓ المشاركة في إقامة تصورات واضحة وقوية لمفهوم النظم من خلال ماورد في هتين المدونتين(دلائل الإعجاز للجرجاني وإعجاز القرآن للباقلاني) ،حيث انحصر نطاق البحث في علمين دون غيرهما مع بحث الأسباب والسياقات قد يقدم في إطار جديد ربما يشكل منها مادة جديدة يعاد على أساسها النظر إلى مصطلح النظم برؤية مغايرة يمكن أن تقدم إسهاما خالصا للدرس البلاغي للوصول إلى تصور دقيق للنظم في التراث العربي .
- ✓ بيان أن وحدة المذهب العقائدي (الأشعري) ووحدة البحث في المجال نفسه (النظم) لم يتولد عنها تجانس في النظريات والمفاهيم والإجراءات .
- ✓ بيان الفروق الدقيقة حول تصور /رؤية الباحثين لمفهوم النظم وبالتالي توضيح مدى التداخل بين المفاهيم التي قدموها ،مع معرفة الإسهام الحقيقي لكل دارس على حدة .وأن الأمر تطور شيئا فشيئا وبلغ مبلغه وأن النهاية ليست كما كانت البداية .

أهمية البحث: تبرز أهمية الدراسة في كونها تبحث في الخلفيات الفكرية اللغوية التي أسهمت في تشكيل وتكامل نظرية النظم، بداية في رسم المنهج النصي الذي تأسست عليه براهين الإعجاز عند الباقلاني ، ثم في رسم المنهج اللغوي التحليلي الذي قامت على أساسه نظرة الجرجاني، من هنا تبدت لي جدوى النهوض بهذه الدراسة في عناصر ثلاثة أراها غاية في الأهمية هي مفهوم النظم عند الباقلاني ثم الجرجاني كل على حدة مع التركيز على أثر

المفهوم على المنهج والإجراء المعتمد عليه عند كل واحد منهما ،لتصل الدراسة إلى موازنة بينهما وتفسير النتائج ،وأخيرا خاتمة تسجل أهم ما تم التوصل إليه من أفكار.

منهج البحث: يقوم البحث على المنهج الوصفي الذي يتتبع النظم (مصطلحا ومفهوما) ، ويحاول إبراز جوانبه، موضحاً طريقة الباقلاني وعبد القاهر الجرجاني في تعاملهما معه، ثم منهج الموازنة والتحليل في الجزء الأخير من الدراسة .

بناء على ما تقدم ذكره ستنبري هذه الورقة بداية نحو عرض رؤية أبي بكر الباقلاني قبل التطرق إلى رؤية الجرجاني بوصف الأول سابقا زمنيا على الثاني:

1- النظم عند أبي بكر الباقلاني : يندرج الحديث عن النظم في كتاب الباقلاني ضمن وجوه الإعجاز، التي عرضها وفصل القول فيها إذ يرى هذا الناقد -متأثرا بنظرة الأشاعرة- أن القرآن معجز من خلال ثلاثة أوجه، يتضمن الأول "الإخبار عن الغيوب، وذلك مما لا يقدر عليه البشر... والوجه الثاني: أنه كان معلوما من حال النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان أميا لا يكتب ولا يحسن أن يقرأ... والوجه الثالث: أنه بديع النظم، عجيب التأليف، متناه في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه." [1]

على الرغم من هذا التنوع النظري في رصد أوجه الإعجاز، إلا أن الواقع التطبيقي يشي بأن مركز الثقل في كتابه كان الإعجاز النظمي ، وهو ما يعكس اتساقا مع الفكر الأشعري، هذا الجنوح نحو بحث هذا النمط من الإعجاز يمثل السبب الذي يقف خلف اطراد استخدام مصطلح النظم في كتاب الباقلاني بشكل مكثف ، والملحظ الهام أن هذا المصطلح غالبا ما يرد مقترنا مع مصطلح الخطاب قاصدا بذلك الخطاب القرآني أو الشعري أو النصوص النثرية ،على أن استعماله متصلا بالنص القرآني فاق الاستعمالات الأخرى ،إذ يرى فيه مزية للقرآن الكريم إذ هو بالنسبة إليه في مستوى أعلى من نظم غيره من الخطابات الأخرى وهو ما صرح به في قوله :"وذلك أن نظم القرآن على تصرف وجوهه، وتباين مذاهبه

[1] - الباقلاني، إعجاز القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر،ط5، 1997، ص69 وما بعدها.

خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختص به، ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد. "[1].

يتضح أن الباقلاني يرد إعجاز القرآن إلى كونه بديع النظم وفائق التأليف عجيب الرصف، ولو تتبعنا السياقات التي ورد فيها هذا المصطلح فسنلحظ أمرين:

أ-إن دلالته تفيد الترتيب والتتابع .

ب-يقترن مصطلح النظم عنده بمصطلح التأليف والرصف، وأحيانا أخرى يستخدم مصطلحي السبك والنسج للتعبير عن المفهوم نفسه نحو قوله: "لتعلم أن نسجها ونسج ما نقلنا من خطب النبي وسبكها سبك غير مختلف"[2]

وعلى الرغم من الانتشار الواسع لهذا المصطلح في الكتاب بوصفه أهم وجه من وجوه الإعجاز، غير أن الباقلاني يبدو أنه لم يحفل كثيرا بوضع تعريف واضح ومحدد له ، وفي الواقع لا نكاد نعثر على سوى هذه الإشارة التي وردت في سياق حديثه عنه : " وليس نظمها أكثر من وجودها متقدمة ومتأخرة ومترتبة في الوجود ، وليس لها نظم سواها ، وهو كتتابع الحركات إلى السماء، ووجود بعضها قبل بعض ، ووجود بعضها بعد بعض"[3] ،وهو

[1] - الباقلاني، إعجاز القرآن، ص35.

[2]- الباقلاني، إعجاز القرآن،ص136.

[3] - الباقلاني: التمهيد. تحقيق عماد الدين أحمد حيدر، مؤسسة الكتب الثقافية، ط1 ،1407هـ/1987م، ص 177، 178

التعريف الذي يقترب فيه اقترابا شديدا من نظرة عبد القاهر). وسوف تتاح لنا فرصة التوقف عند هذه النظرة بتفصيل كامل في مواقع لاحقة من الجزء الخاص بعبد القاهر.

وفيما عدا تلك الإشارة فإننا لا نحظى بنص صريح يوضح فيه الباقلاني مفهوم النظم، وكل ما يمكن أن نستشفه من خلال أقواله إنه استعمل مصطلح النظم للتعبير عن دلالتين:

الدلالة الأولى: بمعنى الأسلوب وطريقة تأليف الكلام، وقد استعمله بهذا المعنى في المواضع التي تختص بالوجوه التي يشتمل عليها بديع نظم القرآن نحو قوله :"ونظم القران جنس متميز ،وأسلوب متخصص..."[1]

الدلالة الثانية : تشير إلى نظم الحروف وصياغة الكلام، فيركز على الجانب اللفظي كتخيّر الألفاظ ويؤكد على قيمة اللفظة المفردة .

ما يهمنا هنا هو أن الباقلاني انطلق من مبادئ الأشاعرة في تصوره لفكرة النظم يقول :"فالكلام الحقيقي هو المعنى الموجود في النفس، لكن جعل عليه أمارات تدل عليه."[2] وهذا نص صريح الدلالة على أن ما يراه المتلقي من نظم للفظ عند الباقلاني هو وعاء غير مقصود لذاته لأن النظم في الأساس واقع في المعاني أو ما يسمى ترتيب للكلام النفسي أو المعاني النفسية وما اللفظ إلا أمارة ودليل عليه ،وتبعا لذلك فهي خادمة للمعاني وتابعة لها ، وتترتب في النطق بحسب ترتيب معانيها في النفس، فمزية النظم في معانيه دون ألفاظه ،وبهذا نجد "الباقلاني ملتزما في تصوره للعلاقة القائمة بين الألفاظ والمعاني، ولوظيفة الألفاظ وقيمتها، وللنظم وإعجاز القران، بعقيدة الأشاعرة في كلام الله تعالى"[3]، هذه

[1]- الباقلاني، إعجاز القرآن،ص159.

[2] - الباقلاني، الإنصاف فيما يجب اعتقاده ،تحقيق محمد زاهدين الحسن الكوثري ،المكتبة الأزهرية للتراث، ط2، 2000، ص101.

[3] - ميسون أيوب الحمداني: الباقلاني وجهوده في علم البلاغة ، مجلة دراسات البصرة ،جامعة البصرة ، السنة السابعة ، العدد 14 ،2012، ص 81.

العقيدة التي تتأسس على فكرة أن النظم القرآني واقع في المعنى، وأن توالي الألفاظ يتبع ترتيب المعاني الكامنة في النفس.

وقد يبدو الباقلاني هنا أشعريا، لكن إذا أضفنا إلى قوله السابق ما نص عليه من أن القرآن "سهل سبيله، فهو خارج عن الوحشي المستكره، والغريب المستنكر، وعن الصنعة المتكلفة.[1]، فسنلحظ حتما أنه "في هذا المعنى يلتقي مع المعتزلة، ويوافقهم في كثير من أسس مذهبهم في البيان وإعجاز القرآن"[2]، والملاحظة نفسها ذهب إليها الدكتور شوقي ضيف. [3]

والواقع أن التأثر بفكر المعتزلة لم يتوقف عند هذا الحد، فالرجل سار شوطا بعيدا في عنايته باللفظ المفرد وحرصه على تسجيل الخصائص الصوتية للحروف ومخارجها [4]، وبهذا "يكون الباقلاني متفقا مع المعتزلة في تصورهم للإعجاز، فهو عندهم في الكلام المؤلف من الأصوات، وفي الصورة السمعية للكلام، ولذلك فإن انتصار الباقلاني للمعاني على حساب الألفاظ يعد باهتا في ثنايا كلامه."[5]

وتعزو الباحثة ميسون أيوب الحمداني هذا الجنوح نحو الأخذ بآراء المعتزلة إلى سيطرة آراء الجاحظ في الوسط البلاغي ، فتصرح :" واضح ان الباقلاني رغم أشعريته ، لم يستطع التخلص من سيطرة الفكر الجاحظي على الثقافة العربية الإسلامية ، لأنه يردد ما قاله الجاحظ" [6]

من ناحية أخرى فلو تتبعنا السياقات التاريخية التي ورد فيها الحديث عن النظم عند الباقلاني فسنلحظ أنها جاءت اعتراضا على آراء الرماني حين رد الإعجاز إلى وجوه البلاغة وصور البديع ،لينسف الباقلاني هذه الفكرة ويبين بطلانها على اعتبار أن هذه الوجوه تقع في مواضع دون أخرى بينما كان هاجسه الأول هو بيان أن الإعجاز يقتضي أن

1- الباقلاني، إعجاز القرآن،ص46.
2- أحمد أبو زيد، مقدمة في الأصول الفكرية للبلاغة وإعجاز القرآن، دار الأمان الرباط، ط1، 1989، ص90
3- شوقي ضيف : البلاغة تطور وتاريخ ،دار المعارف، القاهرة، 2009، ص108، 109.
4- ينظر الباقلاني، إعجاز القرآن،ص44- 46.
5- ميسون أيوب الحمداني: الباقلاني وجهوده في علم البلاغة ،ص84.
6- ميسون أيوب الحمداني: الباقلاني وجهوده في علم البلاغة، ص86.

يشمل الخطاب القرآني كاملا ، فلو سلمنا بأن إعجاز القرآن يظهر بالوجوه المذكورة ، فذلك يعني ضمنا أن القرآن متفاوت ومتباين في أسلوبه ،وهذا يسلمنا إلى أن المواضع القرآنية التي لا تتوفر فيها تلك الوجوه تفتقد وجه الإعجاز ،الأمر الذي يقودنا حتما إلى أن يتساوى القرآن مع كلام البشر، " لأنه يجوز أن يتفق في شعر الشاعر قطعة عجيبة شاردة تباين جميع ديوانه في البلاغة ، ويقع في ديوانه بيت واحد يخالف مألوف طبعه، ولا يعرف سبب ذلك البيت ولا تلك القطعة في التفصيل ، ولو أراد أن يأتي بمثل ذلك أو يجعل جميع كلامه من ذلك النظم لم يجد إلى ذلك سبيلا"[1]

والاعتراف بوجود التفاوت الأسلوبي واقتصار الإعجاز على مواضع دون أخرى هو ما يرفضه الباقلاني لمنافاته الإعجاز ، لذلك كان شغله الشاغل هو إيجاد نظرية جديدة تتحقق في جميع المواضع ، وليس ثمة ما يستطيع أن يفسر الإعجاز في النص كاملا سوى فكرة (انعدام التفاوت) التي تعني اطراد المستوى العالي من النظم في جميع القرآن على الرغم من تغير موضوعاته ،مما يفصح عن نظام لغوي موحد وليس اتفاقا جلبته المصادفة :" فأما شأو نظم القرآن فليس له مثال يحتذى عليه، ولا إمام يقتدى به، ولا يصحّ وقوع مثله اتّفاقا كما يتّفق للشاعر البيت النادر والكلمة الشاردة، والمعنى الفذّ الغريب، والشيء القليل العجيب...وقد تأمّلنا نظم القرآن، فوجدنا جميع ما يتصرّف فيه من الوجوه التي قدّمنا ذكرها على حدّ واحد، في حسن النظم، وبديع التأليف والرصف ..." [2] ،وبالتالي فإن الوجوه التي ذكرها الرماني لا اعتبار لها في الحكم على إعجاز القرآن ، لأنها " موضعية ".

لقد التفت الباقلاني بتقدير إلى مسألة الطول وربطها بالإعجاز، فأوضح أن المدى الذي يمكن أن تصله الطاقات البشرية لا يمكن أن يصل إلى ما هو موجود في القرآن، إذ :"ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة والتصرف البديع ..على هذا الطول وعلى هذا القدر"[3] ، وحسب الباقلاني فهذا لا ينفي إمكانية الإبداع عند البشر فإن :" اللّه

1- الباقلاني، إعجاز القرآن، ص286.
2- الباقلاني، إعجاز القرآن،ص112.
3- الباقلاني، إعجاز القرآن،ص36.

تعالى قد وفق العرب إلى قدر من البلاغة، ولكنه أقدرهم على حد محدود" ، لينهي حديثه شارحا كيف أن "كلام الآدمي إن امتد وقع فيه التفاوت وبان عليه الاختلال." [1]

تأسيسا على ما تقدم يتضح أن إدراك الباقلاني لسمة الوحدة في النظم القرآني بوصفه " خصوصية ترجع إلى جملة القرآن وتميز حاصل في جميعه"[2] جعلته يوجه عنايته إلى النظر في النص (في جملته) رافضا النظرة التجزيئية، ولقد ساقته الفكرة السابقة إلى الإقرار بأن الإعجاز لا يتبين بأقل من السورة أو ما كان بقدرها، وذلك هو القدر المعجز بالنسبة إليه، يقول في ذلك:" (الذي ذهب اليه عامة أصحابنا _الأشاعرة _أن أقل ما يعجز عنه من القرآن السورة قصيرة كانت أم طويلة، أو ما كان بقدرها ." [3]

وبذلك يكون الباقلانى قد خالف منهج المعاصرين له والسابقين في دراساتهم حين اعتمدوا الآية أو الجملة أو بيت الشعر أو شطره أساسا لتحليلاتهم النقدية البلاغية، وفى إبراز الإعجاز القرآني خاصة.

فإذا التفتنا إلى التطبيق فسنلحظ أن طبيعة الشواهد أو الأبيات التي قدمها تقف هي الأخرى دليلا على اختلاف مفهوم النظم اختلافا جذريا عما كان سائدا ،إذ أننا نلحظ أن الباقلاني يعمد في تحليلاته إلى سورة كاملة فيتدرج في تحليل النظم فيها ابتداء من مطلعها متتبعا أساليبها ، ونستشهد في ذلك بتحليله لسورة النحل وسورة غافر ،والأمر نفسه ينطبق على الشعر فقد أخضع قصائد كاملة للتحليل وبين تفاوت النظم فيها ، وأظهرها في معرض القصور والخلل أمام نظم القرآن رغم إجماع الدرسين على جودتها وامتيازها [4] ، وبهذا يكون الباقلاني – بسبب تصوره الخاص للنظم -قد حقق الاستثناء

1- الباقلاني، إعجاز القرآن،ص، 289، 36.
2- الباقلاني، إعجاز القرآن، ص35.
3- الباقلاني، إعجاز القرآن،ص258.
4- ينظر الباقلاني، إعجاز القرآن، ص197 وما بعدها . وينظر أيضا ص 181وما بعدها .

بالنسبة للدراسات السابقة، ويمكن في هذا السياق أن نستشهد بقول الباحث عبد الرؤوف مخلوف حين ذكر أن :

" الباقلاني أثناء التحليل نلاحظ استشهاده بعدد من السور والقصائد كاملة الأمر الذي يشير ضمنا إلى أن مفهوم النظم عنده بدأ يأخذ شكلا مغايرا يتعدى الجملة إلى الجملة والفقرة والنص كله عنده، حيث أدار البحث في النظم على أنه التناسق في جملة القرآن أو في سور كاملة وليس النظم في جملة أو في آية"[1]، و أيد الباحث أشرف عبد البديع هذا الكلام فأشار إلى أن مفهوم النظم قد أخذ شكلا جديدا بداية من الباقلاني، وأن النظم عند الجاحظ والخطابي والرماني ظل لا يتجاوز حدود أسوار نحو الجملة.[2]

إن كل ما قدمه الباقلاني من جهود حول النظم قد فتح آفاقا واسعة للدراسة النصية لذا فمكانه في ذلك لا ينكر وفضله لا يجحد، لكن ما كان يعوزه هو التحديد الدقيق والواضح لمفهوم النظم واكتفاؤه بالوصف على وجه الإجمال ، إذ "من شأن هذا الوصف المجمل أن يحجب عن الناظر الجهة التي تعرض منها المزية وفهمها على وجهها، وهو العيب الذي وقع فيه الباقلاني حين ربط إعجاز القرآن بنظمه من دون أن يفسر هذا النظم ، ويعطيه مضمونا ملموسا يتبين فيه أثره في بلاغة النص ، إذ لا يكفي أن تقول إنه خصوصية في كيفية النظم وطريقة مخصوصة في نسق الكلم. "[3]

ومهما يكن من أمر سيظل الوضوح في هذه المسألة ينتظر عبد القاهر ليقول كلمته الفصل، وهو ما ستضطلع به الصفحات القادمة:

2- النظم عند عبد القاهر الجرجاني :

تكاد تجمع جل الدراسات على أن عبد القاهر له حصة كبيرة في تكوين مفهوم واضح ودقيق لمصطلح النظم، وإليه ينسب الإسهام الفعلي في ذلك، على الرغم من أنه لم

[1]- ينظر عبد الرؤوف مخلوف : الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن دراسة تحليلية نقدية ،دط، بيروت، منشورات مكتبة الحياة ،1978، ص 185.

[2]- ينظر أشرف عبد البديع: الدرس النحوي النصي في كتب إعجاز القرن الكريم، القاهرة، مكتبة الآداب، 2008، ص98.

[3]- ميسون أيوب الحمداني : الباقلاني وجهوده في علم البلاغة ، ص82.

يكن أول من أشار إلى النظم كما أشرنا سابقا، وإذا كانت مسؤولية هذا الجزء من الدراسة هي توضيح الإضافة التي قدمها الجرجاني فإن ذلك يمكن أن يظهر بوضوح في المفاهيم التي قدمها، وبدرجة أكبر في المنهج الذي ارتضاه في التحليل.

في هذا السياق لابد من الإشارة إلى أن الجرجاني ومنذ البداية أعلن بوضوح أن كتاب الدلائل خاص بنظرية النظم ، والحديث فيه مخصص للدفاع عنها فحسب، وكل ما يحتويه من تفاصيل وجزئيات متعلقة بها، فضلا عما حشد لها من الأمثلة والشواهد، وبناء على ذلك تشير المتابعة النظرية والتطبيقية للنظم (مصطلحا ومفهوما)عند عبد القاهر إلى أنها محور تدور حوله كل مباحث كتاب الدلائل ،وهذا الملمح تفرد به عن جميع الكتب التي تناولته فقارئ (الدلائل) سيلحظ حتما " المنحى الدوراني المتشعب حول نقطة مركزية هي إعجاز النظم وما يتعلق به أو يؤدي إليه من دروب وقنوات، كل واحدة منها تمثل مشروع دائرة شبه مستقلة." [1]

إن من الأسباب التي هيأت لهذا المصطلح أن تتوسع مباحثه وتتحدد معالمه وقسماته في كتاب الدلائل تحديدا أن الجرجاني أفاد من جهود سابقيه قبل أن يغذيها برؤيته الخاصة، ومن ثم كان الطريق لدراسة النظم معبدا أمامه بسبب تلك الجهود الفكرية المتواصلة التي شارك فيها النقاد والبلاغيون واللغويون كما سبقت الإشارة إلى ذلك، مما أسهم في نضج التصورات وتزايد الوضوح النظري، فما وصلت إليه فكرة النظم إلا وقد تبلورت على يديه نظرية بلاغية نقدية قائمة بذاتها.

وفي خطوة منهجية تحمد للجرجاني فقد تصدر تعريف النظم مباحث الكتاب ،فقد ذكره قائلا : "ليس النظمُ شيئاً إلاّ توخيّ معاني النحو وأحكامِه ووجوهِه وفروقه فيما بَيْنَ معاني الكلم"[2] .يبدو أن عبد القاهر لم يقنع بالتعريف الواحد ،لهذا لم يتوان عن سوق تعريف آخر في موضع آخر من الكتاب ،حيث يقول :"و اعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف

[1]- عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز ،تحقيق ياسين الأيوبي، نسخة الكترونية ، ج1،ص9، https://shamela.ws/book/31731/10

[2]- عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز في علم المعاني ،تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني ،القاهرة، دار المدني، جدة، ط3، 1992، 525/1.

مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها"[1]، في ظل هذا السعي الحثيث لوضع مفهوم النظم لم يكن غريبا أن يصدر عن عبد القاهر آراء أخرى تعزز المفهوم الذي وضعه منها قوله :" هو تعليقُ الكَلم بعضها ببعضٍ وجعلُ بعضها بسببِ بعضٍ"[2]

والواقع أن ثمة نصوصا أخرى غير هذه تدعم ما ذهبنا إليه لا يتسع المقام لذكرها، إذ يكفي أن نتبين احتفال الجرجاني بوضع تعريفات للنظم بأساليب مختلفة ، فلماذا كل هذا التوسع والحرص على إضاءة مفهوم النظم في كل مرة ؟ يبدو واضحا أن الأمر لا يخلو من محاولة تكريس وترسيخ فكرة معينة ، تأسيسا على ذلك سنقف عند أهم سببين نراهما يقفان خلف هذا السعي الحثيث :

أ-المشغل الرئيسي الذي حرك الجرجاني للتأليف والنقاش حول مفهوم المصطلح وشجعه على المضي في هذا النهج ،هو "تبلور القسم الأعظم من فكرة الإعجاز على يد المعتزلة واستقراره على فكرة نظم الألفاظ والحروف والتركيز على الجانب الصوتي بفضل مجهودات بلاغيي هذه الفرقة الكلامية الذين رسموا النسيج العام لفكرة النظم القائم على جانب الصياغة اللفظية"[3]،يبدو أن الجرجاني استشعر ضرورة الاضطلاع بمهمة الدفاع عن نظرية النظم من منظورها الأشعري ، وبدا له أن الحاجة صارت أكثر من ملحة لتصحيح المسار الذي سارت فيه فكرة النظم -لاسيما بعد أن بسط الفكر المعتزلي نفوذه على التفكير البلاغي-،وبدل الحديث عن نظم الألفاظ كما ينادي المعتزلة، سيتوجه الكلام نحو نظم المعاني ،ومن هذه النقطة انطلق الدفاع عن النظم كما يراه الأشاعرة .

ب-أحس الجرجاني أن عدم تحديد مفهوم النظم يعد قصورا وعيبا من عيوب الدرس الإعجازي عند معاصريه وسابقيه، فهذا النظم -وإن كان عند هؤلاء وجها من وجوه الإعجاز- إلا أن لا أحد منهم استطاع أن يضع له مفهوما دقيقا واضحا ،فلا تزال دلالته ضبابية غائمة معتمة لا تستطيع القبض فيها على شيء ملموس، وبالتالي فالمصطلح يعوزه التدقيق وتعيين صلته بتحقق الإعجاز بشكل ملموس لا لبس فيه،وقد جاء هذا الطرح في سياق رد الجرجاني على موقف القاضي عبد الجبار دون أن يصرح باسمه إذ اكتفى هذا

[1]- المصدر السابق ، 81/1.
[2]- المصدر نفسه ، 466/1.
[3]- يمينة رعاش : الحجاج التقويمي في كتاب دلائل الإعجاز ، مجلة أبوليوس ، مجلد 10، عدد2، جويلية 2023، ص147.

الأخير بوصف النظم بكونه خصوصية في نظم الكلام دون أن يشرح مكمن الخصوصية[1]، وإذا كان الجرجاني يرد أوصاف القاضي عبد الجبار فليس لأنه غير مقتنع بها ،وإنما لا تعجبه حججه وأقواله التي جاءت مبهمة ،كما أنه رفض جانب الإجمال فيها ،وقد أدى به هذا إلى أن يحاول توضيح هذه الجوانب وتفصيلها تفصيلا عمليا في كتابه فقال :" لو كان قول القائل لك في تفسير الفصاحة إنها خصوصية في نظم الكلم وضم بعضها إلى بعض عن طريق مخصوصة أو على وجوه تظهر بها الفائدة ...كافيا...لكفى مثله في معرفة الصناعات كلها." [2] واضح أن مجرد الإجمال دون التوضيح الفعلي لخصوصية النظم قد أساء إلى المصطلح، فراح يؤكد ضرورة التفصيل، وهذا بدوره قاده إلى الكشف عن الدور الذي تقوم به العلاقات النحوية فعمل على إبراز أهميتها وتعزيز دورها من خلال الأمثلة والشواهد ليخرج إلى نتائج غاية في الأهمية:

فقد بين الجرجاني أن كل جمال أدبي (الفصاحة) يرتد إلى النظم، ومن ثم يستحيل التطرق إلى تحديد أسباب الجمال القولي دون العودة إلى النظم فتفصل فيه، وهو بهذا يطالعنا بصفة من صفات المنهج العلمي تقوم على التدقيق والتفصيل، فلا يكفي في علم الفصاحة أن تنصب لها قياسا وأن تصفها وصفا مجملا وتقول فيها قولا مرسلا بل لا تكون من معرفتها في شيء حتى تفصل القول وتحصل وتضع اليد على الخصائص التي تعرض في نظم الكلام وتعدها واحدة واحدة وتسميها شيئا شيئا "[3]. إذا عبد القاهر كان يعدنا لنقلة مهمة في أفق الدراسات الأدبية من خلال وضع الخطوط العريضة للمنهج العلمي الموضوعي في تفسير الجمال ومن ثمة الإعجاز، ذلك المنهج الذي يقوم على ثلاث سمات لابد منها وهي:

- ✓ الوصف التفصيلي التدقيقي
- ✓ واليقينية البعيدة عن أي احتمال وشك (تضع اليد)
- ✓ والإحصاء (تعدها واحدة واحدة) [4]

---

[1]- ينظر القاضي عبد الجبار : المغني في أبواب التوحيد والعدل، تحقيق أمين الخولي، وزارة الثقافة والإرشاد القومى، الإدارة العامة للثقافة، القاهرة، 1960 ، 199/16.

[2]- عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز، 36/1.

[3]- عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز ،37/1.

[4]- علي مهدي زيتون : الإعجاز القرآني وآلية التفكير النقدي عند العرب، دار الفارابي، بيروت، ط1، 2011، ص39- 40.

وقد تنبه عدد من النقاد قبله إلى هذه القضية، لكن يبدو أنهم لم يتمكنوا من صياغتها على هذا النحو الواضح، فقد أشار الخطابي إليها إشارة بدت غائمة مبهمة في قوله:" ولذلك صاروا إذ سئلوا عن تحديد هذه البلاغة التي اختص بها القرآن وعن المعنى الذي يتميز به عن سائر أنواع الكلام الموصوف بالبلاغة، قالوا إنه لا يمكننا تصويره ولا تحديده بأمر ظاهر ...وإنما يعرفه العالمون عند سماعه ضربا من المعرفة لا يمكن تحديده... قالوا وقد توجد لبعض الكلام عذوبة السمع وهشاشة في النفس لا توجد مثلها لغيره ومنه الكلامان معا فصيحان ،ثم لا يوقف لشيء من ذلك على علة."[1]

ليس غريبا أن تصدر هذه الوثبة المنهجية الجبارة عن مهارات عقلية فائقة كتلك التي يمتلكها الجرجاني ،فالرجل الذي يجمع إلى ذوقه الفني نزعة عقلية يأبى أن يقبل وصفا جماليا دون أن تزكيه مقومات علمية كالوصف والتقرير والإحصاء، وقد عززت عقيدته الأشعرية هذه الوجهة ،إذ " ينتمي عبد القاهر الجرجاني إلى بيئة ثقافية شرقية، تتسم بكل السمات التي تميز المنهج الفكري في بيئة المتكلمين، من ميل نحو تداخل الأشياء و الدقة في تتبع الجزئيات داخل نسيج يخضع للتوالد المنطقي المنتظم وهذا لا يخرج عن ركائز مذهبه الأشعري الذي ينتمي إلى هذه البيئة ،مما جعله أكثر جرياً وراء الجمال، الذي يحكمه العقل و المنطق.والحجة والبرهان، وليس أكثر حجة ودلالة على جمالية اللغة وبيانها من الأدلة اللغوية والدلالية في توجهاتها المختلفة." [2]

لقد كان التوجه نحو التفصيل من أوضح النتائج المترتبة عن فهم الجرجاني للصلة الوطيدة بين النظم والإعجاز، ويرسخ هذا الموقف توجها بلاغيا مميزا عن التوجه الآخر القائم على الدراسة الإجمالية كما رأينا عند الباقلاني. وبذلك قلب المعادلة التي أخذ بها هذا الأخير.

ولأن البحث في النظم عند عبد القاهر الجرجاني يتكئ على ذخيرة ثقافية واسعة في النحو واللغة، فقد عزا ذلك المستوى الفني البليغ وارتقائه في مدارج الجمال الفني حتى يبلغ درجة الإعجاز ،وما يترتب على قارئه من النشوة الجمالية ، إلى علم النحو قائلا :" إذا

---

[1]- أبو سليمان الخطابي : البيان في إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)،تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دار المعرفة ،مصر، ط2، 1968، ص22،23.

[2]- علي مهدي زيتون : الإعجاز القرآني وآلية التفكير النقدي عند العرب،ص39- 40.

رأيتها قد راقتك وكثرت عندك ووجدت لها اهتزازا في نفسك فعد فانظر في السبب واستقص في النظر فإنك تعلم ضرورة أن ليس إلا أنه قدم وأخر وعرف ونكر وحذف وأضمر وأعاد وكرر وتوخى على الجملة وجها من الوجوه التي يقتضيها علم النحو فأصاب في ذلك كله "[1]، ونستطيع أن نخرج من هذا النص بمجموعة من الحقائق توضح لنا مفهوم النظم عنده :

أ-إن الأسرار الكامنة وراء إعجاز النظم القرآني، ووراء الإبداع الشعري ليس اختراعا لمادة جديدة بل هي في الأصل مادة قديمة أعيدت صياغتها وترتيبها بطريقة جديدة تعتمد على الإمكانات التي يتيحها النحو من تقديم وتأخير وإظهار وإضمار وتعريف وتنكير، وبعبارة أخرى فإن جوهر النظم هو إعادة توزيع العناصر اللغوية.

ب-المدخل الأساسي والزاوية التي نظر بها عبد القاهر هي المدخل اللغوي، وأن البحث في النظم إنما هو بحث بلاغي /نحوي منه المنطلق وإليه المآب .

لم تتوقف الجهود التنظيرية المتعلقة بالنظم عند عبد القاهر عند هذا الحد ، فقد جاء دافعا التفصيل والتدقيق إلى أبعد حدوده عندما حاول ضبط القوانين المتحكمة في نظم المفردات داخل الجملة، رابطا إياها بالدور الذي تؤديه في توجيه الدلالة ، هذه الصلة الوثيقة بين النظم والدلالة المنبثقة عنه عبر عنها عبد القاهر تطبيقيا من خلال إحصاء الوجوه والبنى التي يمكن أن ترد عليها الجملة العربية ، ومن ثم انبرى عبد القاهر لبحث وشرح أسباب اختيار بنى نحوية معينة دون أخرى وكيفية تأثير ذلك على الدلالة ، الأمر الذي فتح الباب واسعا أمام البلاغة العربية لتصل إلى ما وصلت إليه من أبعاد علمية وموضوعية.

والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا السياق : ماهي الأبعاد المنهجية للتصور الذي قدمه عبد القاهر ؟للإجابة عن هذا السؤال لابد أن نأخذ في الاعتبار سعة الخلفية النحوية للإمام عبد القاهر ،لذا فقد ساعد تصوره النحوي الدقيق لفكرة النظم على تكريس بلاغة الشاهد بدلا عن بلاغة النص عنده، لأن هذا النمط يستدعي ضرورة تناول الجزئيات والتدقيق في أصغر الوحدات ،وبالتالي الوقوف عند أصغر تركيب ذي دلالة ممثلا في (الجملة) ، إذ

[1]- عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز ،85/1.

" الجملة هي المدى الأقصى الذي وقف عنده النحاة، فلم يتناولوا وحدة أكبر منها، حتى حينما كان النحاة يتحدثون عن عطف الجمل أو عن الاستدراك أو الإضراب ،كان منطلقهم من علاقة الجملة الواحدة بأختها ،ولم يحدث مرة أن شملوهما معا بمصطلح واحد يتخطى حدود مفهوم الجملة."[1]

تأسيسا على ما تقدم فإن هذا المنطلق عند عبد القاهر كان له عميق الأثر في تناوله لفكرة النظم، إذ عزف عن النظرة الكلية الشاملة كما فعل الإمام الباقلاني، واقتصر على البنى الصغرى، ولهذا " يجب أن ندرك أن النظم الذي يقيمه عبد القاهر إنما هو نظم الجملة وليس نظم النص، ذلك أن عبد القاهر ركز على كشف العلاقات النحوية الرابطة بين المفردات داخل الجملة أو البيت ولم يتجاوز ذلك إلى النص بتمامه."[2]

ومما يؤدي دلالة عميقة في ترسيخ الفكرة القائلة بأن عبد القاهر لم يتوسع في بحث البنية في شموليتها واقتصر على الجملة، أنه اعتمد على آلية الانتقاء وليس الاستقصاء في اختيار الشواهد "فلم يلزم نفسه بعدد محدد من الأبيات أو الآيات بل كان يتحرك بحرية تامة فيختار أفضل ما يراه، كما كان همه أن يبحث عن الشاهد دون النظر إلى علاقته مع غيره"[3] ..فهذا الكلام يشير إلى تأسس النظم عنده على بلاغة الشاهد لا بلاغة النص.

وقبل أن أصل بالحديث عن رؤية الجرجاني تجاه النظم إلى نهايته أرى لزاما أن أسجل أن رؤيته نحو الشواهد تبدو مختلفة مع العنوان الذي وضعه لكتابه ،فعلى الرغم من أنه ألف كتابه دفاعا عن الإعجاز في القرآن وقدم تحليلات رائعة لآيات ،غير أنه لم يتقيد –كما فعل الباقلاني – بالدفاع عنه ،بل اتجه نحو تحليل النظم في الشواهد الشعرية مبينا أسرار التعبير واختيار تراكيب معينة ،وهو ما أثمر عن ظاهرة جديرة بالتنبه لها أشار إليها الباحثان مصطفى ناصف وكذلك عائشة عبد الرحمن، إذ لاحظا أن عبد القاهر اهتم

---

[1]- تمام حسان : الأصول دراسة ابستيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب ، عالم الكتب ،القاهرة ،2000 ، ص309، 310.

[2]- جميل عبد الحميد : بلاغة النص ،مدخل نظري ودراسة تطبيقية ، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ،القاهرة ،1999، ص29، 30.

[3]- ينظر : عايش محمود سليم العايش: مختارات عبد القاهر الجرجاني دراسة نقدية في ضوء فكره النقدي، مذكرة ماجستير، جامعة اليرموك، الأردن، 1985، ص14- 16.

بالشاهد الشعري أكثر من القرآني[1]، والملاحظة نفسها عززتها الباحثة نجاح الظهار بتصريحها الآتي :

" اعتمد عبد القاهر على الشواهد الشعرية أكثر من اعتماده على الشواهد القرآنية أو الأحاديث النبوية على الرغم من أن عبد القاهر قد قدم كتابه دليلا على الإعجاز." [2]

وتعد قراءة الباحث عبد الكريم الكواز من أوضح الدراسات التي أبرزت السلبيات في كتاب الدلائل ،والتي تتمثل في انفصام العلاقة بين النظم كدراسة وضعت لتعليل الإعجاز وبين الشواهد القرآنية ،فقد ذكر أن الجرجاني في غمرة تحليله للشواهد الشعرية التي راقته قد نسي الغرض الذي من أجله تكبد عناء تأليفه للكتاب ،يقول الكواز: "لم يحقق ربط النظم بالإعجاز بحيث يسوقه دليلا على الإعجاز في كل موضع ، ولهذا قل الشاهد عنده قلة ظاهرة مما هيأ لأن يقال : بأن الشيخ عبد القاهر نسي الغرض الذي ألف الكتاب من أجله ،أو انحرف عن الطريق المرسوم." [3]

ونعتقد أن هذا الانفلات من الهدف الذي وضعه ممثلا في الدفاع عن إعجاز النظم في النص القرآني لم يكن قصورا منهجيا ولا نسيانا ، إذ يتبين أن عبد القاهر –بفعل الوعي النظري عنده- كان يجمع إلى الهدف المذكور هدفا آخر وهو التمكين لنظرية النظم بوصفها نظرية في علم الجمال الأدبي وتحويل مبادئها إلى مفاهيم جمالية عامة ،فبدا وكأن النص القرآني عزز من هذه النظرية وعضدها ، ونحسب أن عبد القاهر "لا يسعى إلى تعليل الظاهرة الإبداعية بعد أن يتقرر وجودها وحسب بل يسعى إلى وصفها وتحويل قيمها الفنية الناتجة عن استخدام اللغة إلى مفاهيم جمالية" . [4]

فعبد القاهر حين يركز على الشواهد فبدافع إيضاح الفكرة النظرية المتصلة بالنظم في كل غرض لغوي أو بلاغي، فيشفعها بشاهد أو شاهدين يحللها ويدققها، ومتى ما أمعن القارئ نظره سيجد حتما أن تلك النماذج /الشواهد المستحضرة عند عبد القاهر تخضع

---

[1]- ينظر :مصطفى ناصف :نظرية المعنى في النقد العربي ،دار الأندلس للطباعة والنشر، بيروت ،ص30 .
وينظر عائشة عبد الرحمن : الإعجاز البياني للقرآن ،دار المعارف، القاهرة، ص 110، 111.

[2]- ينظر نجاح أحمد عبد الكريم الظهار : الشواهد الشعرية في كتاب دلائل الإعجاز ،أطروحة دكتوراه، جامعة أم القرى ،مكة المكرمة، 1988 ، ص10

[3]- محمد كريم الكواز: البلاغة والنقد ،مؤسسة الانتشار العربي، بيروت،ط1، 2006،ص 340.

[4]- علي مهدي زيتون: الإعجاز القرآني وآلية التفكير النقدي عند العرب، ص35.

لوظائف محددة، تمليها أهداف الدرس البلاغي عنده وهي التأسيس لشرعية النظم كآلية إجرائية تبرر الجمال بأسباب موضوعية .

3-موازنة وتفسير : إن كل ما ذكرناه عن مفهوم النظم عند عبد القاهر والباقلاني يبقى غير ذي فائدة مالم نتحدث عن نتائج الموازنة بينهما ،من هنا واستكمالا لما نحاول تأسيسه منذ البداية سنرصد أوجه الاختلاف والتشابه بين النظرتين مع محاولة تفسيرها ، ويمكن أن نتبين أهم الفروقات فيما يلي :

أ-إن الذي يمكن أن نستظهره من خلال العناوين أن البحث في الإعجاز عند الباقلاني يبحث في مجالات متنوعة ومتغايرة كامنة في النص القرآني، والنظم هو أحدها، كما أن العنوان (إعجاز القرآن) بهذه الصيغة شامل جامع عام ينضوي تحته عدد من قضايا الإعجاز، أما عنوان (دلائل الإعجاز) فهو وإن كان يدل على التعدد على اعتبار كلمة (دلائل) هي صيغة جمع، إلا أن المضمون يشير إلى قضية واحدة هي (النظم) منها المنطلق وإليها المآب.

ب-رغم ضخامة الجهد عند الباقلّاني حول النظم إلا أنه لم يتحدّد مفهومه الدقيق ولم تتضح معالمه بوضوح كما هو الأمر عند عبد القاهر.

ج-في مجال تحليل جوانب الإعجاز وربطها بالنظم ، وقفت الدراستان بإزاء النص القرآني تقدم تفسيرا يتفق الناقدان فيه على أن القرآن الكريم لا يختلف عن كلام العرب في نوعه بل في درجة إحكامه التي جعلت منه كلاما معجزا ، وإذا سجلنا على عبد القاهر نزعته التجزيئية وللباقلاني نزعته الإجمالية ،فإن ذلك لا يعني أن الرجلين قد قاما بعملين مختلفين كل الاختلاف ،فهما قد توجها إلى المسألة نفسها وهي وقوع الإعجاز في النظم لكن من خلال منظارين مختلفين أو مرآتين إحداهما ترى النظم بمرآة محدبة والأخرى بمرآة مقعرة .

د-منهج عبد القاهر هو التفصيل والتدقيق في النموذج / العينة ومن ثم تفسير الاختيار مع ربطه بالدلالة تحت مسمى (معاني النحو ومعرفة الفروق والوجوه) ،أما منهج الباقلاني فهو الموازنة النصية التي تعتمد الإجمال، يمكن الخروج بسهولة من هذا الفرق باستنتاج منطقي يقوم على تباعد الخلفية اللغوية لأن عبد القاهر نحوي في الأساس ،فيما تغيب

هذه الخلفية عن الباقلاني ،هذا ما دعا الباحثة ميسون الحمداني لأن تعلل غياب التنظير في جهود الباقلاني بقولها: "ولعل غياب الأساس اللغوي أو النحوي عن تصور الباقلاني جعلت جهوده لا ترقى إلى تأسيس نظرية في النظم تقوم على أسس نحوية. "[1]

هـ-التعليل الموضوعي للإعجاز (في ضوء فكرة النظم) عند عبد القاهر استدعى اختيار عينات صغيرة وبالتالي فأصغر وحدة دلالية تخضع للتحليل كانت الجملة، فيما اتجه التعليل عند الباقلاني نحو السورة بوصفها أصغر وحدة تدل على الإعجاز.

و-دراسة النظم عند عبد القاهر أثبتت أن القرآن معجز لأنه جاء محكما إذ جاء مختارا أفضل الألفاظ مركبة في أحسن التراكيب، لتؤدي أصح المعاني وهو ما عبر عنه عبد القاهر بقوله:

" أن يؤتى المعنى من الجهة التي هي أصح لتأديته ويختار له اللفظ الذي هو أخص به وأكشف عنه وأتم له وأحرى بأن يكسبه نبلا ويظهر فيه مزية "[2]، أما النظم عند الباقلاني فقد أثبت به أن القرآن معجز بسبب انعدام التفاوت فيه رغم طوله مع بلاغة في التعبير لا تدانيها بلاغة أخرى.

ز-جاء الشاهد الشعري في "الدلائل" مسخرا لأجل تعزيز المفاهيم النظرية التي طرحها الجرجاني حول نظرية النظم ويدعمها ويبين من خلالها أفكاره لا ليعارض بها النص القرآني ويبين قصوره، وتبعا لذلك فقد أنتج قواعد جمالية تنطبق على النص الأدبي باختلاف مصدره (نص قرآني / حديث شريف/ شعر ...)، أما الشاهد الشعري عند الباقلاني فجاء

في شكل موازنات بينه وبين القرآن فقط كي يبرزه الباقلاني في معرض القصور أمام إعجاز القرآن وتفوقه.

ي-فيما يتصل بدرجة الالتزام بالمذهب العقائدي الذي يصدر عنه فكر الرجلين في وضع مفهوم للنظم نجد أن عبد القاهر التزم بالمبدأ الأشعري التزاما تاما فخصص كتابه للدفاع

[1]- ميسون أيوب الحمداني: الباقلاني وجهوده في علم البلاغة ، ص83.
[2]- عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز ،43/1.

عن نظرية النظم كما رآها الأشاعرة، أما الباقلاني فإنه وإن انطلق من المبدأ نفسه لكنه لم يلتزم به تمام الالتزام إذ بقي مشدودا إلى فكر المعتزلة، ويمكن أن نفسر ذلك بهيمنة هذا

الفكر واعتماده على قوة الحجة في عصر الباقلاني، في الوقت الذي خفتت فيه جذوة هذا الفكر خلال عصر الجرجاني.

خاتمة :

حاولنا في هذه الدراسة أن نرصد الاختلافات حول مفهوم النظم بين الباقلاني والجرجاني وأثر ذلك على المنهج المتبع عند كليهما، فتبين لنا– كمحصلة نهائية – وجود مقاربة في الهدف ووشائج قربى في بعض التصورات، مع الاختلاف في المسلك والمنهج بين الناقدين، هذه المخالفة بينهما إنما تؤكد أن عمل كليهما مشروع بحثي قائم بذاته ينبغي أن يوضع موضعه في الدرس البلاغي، **ولو** يتاح للدارسين جمع النهجين معا فربما ستكون هناك نظرية في النظم شاملة ومرضية من جميع الوجوه.

المصادر والمراجع:

1-أحمد أبو زيد، مقدمة في الأصول الفكرية للبلاغة وإعجاز القرآن، دار الأمان الرباط، ط1، 1989.

2-أشرف عبد البديع: الدرس النحوي النصي في كتب إعجاز القرن الكريم، القاهرة، مكتبة الآداب، 2008.

3-أبو بكر الباقلاني: إعجاز القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر،ط5، 1997.

4-أبو بكر الباقلاني: الإنصاف فيما يجب اعتقاده ،تحقيق محمد زاهدين الحسن الكوثري ،المكتبة الأزهرية للتراث، ط2، 2000.

5-أبو بكر الباقلاني: التمهيد. تحقيق عماد الدين أحمد حيدر، مؤسسة الكتب الثقافية، ط1 ،1407هـ/1987م.

6-تمام حسان : الأصول دراسة ابستيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب ، عالم الكتب ،القاهرة ،2000 .

7-شوقي ضيف : البلاغة تطور وتاريخ ،دار المعارف، القاهرة، 2009.

8-عائشة عبد الرحمن : الإعجاز البياني للقرآن ،دار المعارف، القاهرة.

9-عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز في علم المعاني ،تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني ،القاهرة، دار المدني، جدة، ط3، 1992.

10- عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز ،تحقيق ياسين الأيوبي، نسخة الكترونية ، ج1،ص9، https://shamela.ws/book/31731/10

11-عايش محمود سليم العايش: مختارات عبد القاهر الجرجاني دراسة نقدية في ضوء فكره النقدي، مذكرة ماجستير، جامعة اليرموك، الأردن، 1985.

12-عبد الحكيم راضي: من آفاق الفكر البلاغي عند العرب ،مكتبة الآداب ،القاهرة،ط1، 2006.

13-عبد الرؤوف مخلوف : الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن دراسة تحليلية نقدية ،دط، بيروت، منشورات مكتبة الحياة ،1978.

14-علي مهدي زيتون : الإعجاز القرآني وآلية التفكير النقدي عند العرب، دار الفارابي، بيروت، ط1، 2011.

15-القاضي عبد الجبار: المغني في أبواب التوحيد والعدل، تحقيق أمين الخولي، وزارة الثقافة والإرشاد القومى، الإدارة العامة للثقافة، القاهرة، 1960 .

16-محمد كريم الكواز: البلاغة والنقد المصطلح والنشأة والتجديد ، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، ط1، 2006.

17-مصطفى ناصف :نظرية المعنى في النقد العربي ،دار الأندلس للطباعة والنشر، بيروت. ص30.

18-ميسون أيوب الحمداني: الباقلاني وجهوده في علم البلاغة ، مجلة دراسات البصرة ،جامعة البصرة ، السنة السابعة ، العدد 14 ،2012.

19-نجاح أحمد عبد الكريم الظهار: الشواهد الشعرية في كتاب دلائل الإعجاز ،أطروحة دكتوراه، جامعة أم القرى ،مكة المكرمة، 1988 .

20-يمينة رعاش : الحجاج التقويمي في كتاب دلائل الإعجاز ، مجلة أبوليوس ، مجلد 10، عدد2، جويلية 2023.